﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

وقبل أن أختم كلمتي لا بد أن أشير إلى أن ابن طفيل يجب أن تكون نسبته أكثر إلى عصر المرابطين منه إلى الموحدين فهو لم يلتحق بخدمة الأخيرين إلا بعد أن تجاوز الخمسين من عمره[34] وبعد أن ألف كتبه الفلسفية في عهد المرابطين، وهو عندما التحق بخدمة عبد المؤمن وأولاده كانت صفة الطبيب الوزير هي الغالبة على عمله.

(34) كان ابن طفيل يعمل في بلاد أحمد بن ملحان الطائي المنتزي في وادي آش، وعندما وجد ابن ملحان أنه لا يستطيع الاحتفاظ بإمارته بسبب تهديد ابن مرديش أمير شرق الأندلس وحلفائه النصاري لجاء إلى الموحدين ودخل في طاعتهم سنة 456 وبعدها بمدة التحق ابن طفيل في خدمة عبد المؤمن.
انظر ابن الخطيب أعمال الإعلام نشر ليفي بروفسال، ص 255.



# الشاعر الفيلسوف
# أبو عبدالله محمد بن خميس التلمساني
## وأدواره التي قام بها في المعركة الفكرية التي أثارها عليه خصومه من الفقهاء

المهدي البوعبدلي

كانت المعارك الفكرية في بلاد المغرب العربي متواصلة، تتجدد المرة بعد المرة. وكانت أهم هذه المعارك المعركة بين السلفيين والمتصوفة التي اجتاحت البلاد الإسلامية شرقاً وغربا. وكان منطلقها بالنسبة إلى المغرب العربي بصفة عامة والجزائر بصفة خاصة في القرن التاسع. وكان قائدها والداعي إليها العالم الفقيه أبو الحسين علي بن عبد الحق الزرويلي الشهير بالصفير قاضي مدينة فاس المتوفى سنة 719هـ وأبو الحسن هذا كانت بينه وبين الإمام ابن تيمية معاصرة حيث توفي ابن تيمية سنة 728هـ وتوفي هو سنة 719. اشتهر القاضي الزرويلي المذكور في بلاد المغرب بما اشتهر به ابن تيمية بالمشرق. والفرق الوحيد بينهما أن الزرويلي كان فقيها مالكياً، بينما كان ابن تيمية فقيهاً حنبلياً. وكانت بلاد المغرب العربي والاندلس لا يوجد فيهما إلا الفقهاء المالكيون. قام القاضي أبو الحسن الزرويلي بالدعوة للسلفية ولم ينقل عنه أنه بالغ أو أفرط في انكاره على متصوفي عهده. وكان من جملة أنصاره في الجزائر الإمام محمد بن مرزوق الحفيد دفين تلمسان وقاومه ورد عليه معاصره العالم الشهير قاسم العقباني فحينئذ ألف ابن مرزوق تأليفه المشهور «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل الناقص». ومن جملة ما قاله ابن مرزوق عن ابن الحسن الزرويلي: «أنه

شيخ الإسلام ما عاصره مثله، ولا كان مثله فيما قارب عصره، وبمقامه في الفقه يضرب المثل، قد جمع بين العلم والعمل... الخ».

وكان من جملة أنصار الإمام قاسم العقباني في الدفاع عن المتصوفين الإمام الشهير محمد بن يوسف السنوسي مجدد علم التوحيد دفين تلمسان.

وفي هذه الفترة من التاريخ ظهر الإمام أحمد رزوق البرنسي الفاسي ولعب دوراً في هذه المعركة مشرفاً خلده له التاريخ. وامكنه أن يحصل على رضا الجانبين المتحاربين السلفيين والمتصوفة، وهذه هي الظروف التي زار فيها زروق تلمسان واجتمع بالشيخ السنوسي بيَّنها في تأليفه «نصرة الفقير في الرد على ابن الحسن الصغير».

وأبو الحسن الصغير كثير ما اشتبه على القراء بسميه ابي الحسن الصغير «بالتصغير» وقد حمل حملة شعواء على المتصوفة اثبتها أحمد بن لحي الونشريسي في «المعيار». كان قبل اتصال الإمام السنوسي بأحمد زروق لا يعرف شيئاً عن أبي الحسن الصغير ولما مر أحمد زروق في طريق ذهابه إلى الحج اجتمع بالسنوسي الذي قام في تقديم تأليفه: «نصرة الفقير في الرد على أبي الحسن الصغير» الذي نقل فيه آراء أبي الحسن الصغير في المتصوفة قال أحمد زروق: «لما لقيت الشاب الفقيه أبا العباس أحمد زروق لما قدم سنة 841هـ قاصداً الحج، وسألته عنه فاخبرني أن أبا الحسن الصغير هذا منتسب إلى سوس بالمغرب الأقصى وكانت حملته على المتصوفة عنيفة وقد نشرها أحمد الونشريسي في موسوعته الفقهية «المعيار» وعندئذ اندلعت نار الثورة الفكرية واجتاحت بلاد المغرب العربي عدة فروع ولعب فيها الشيخ أحمد زروق ادواراً خلدها له التاريخ بقيت منها جوانب مجهولة فاغتنمت هذه الفرصة لذكرها إذ كانت المعارك التي أثارها ما سبق لنا ذكره علم اليونان: المنطق والفلسفة موضوع ملتقانا لا تقل ضراوة عما احدثته الخلافات بين السلفيين والمتصوفة إلا أن الكثير من معاصرينا اختلط عليهم الأمر ونسوا الخلاف الذي اجتاح بلاد المغرب العربي ولعب فيه



أحمد زروق ادواراً من بدايته، كما أخبر بذلك الإمام محمد بن يوسف السنوسي في تأليفه «نصرة الفقير، في الرد على ابن الحسن الصغير» عندما اجتمع سنة 841 بالشاب أحمد زروق بتلسمان في طريقه إلى الحج. نسبوا هذا الخلاف للحملة التي قام بها الإمام أحمد بن تيمية. والواقع التاريخي يثبت أن المعركة السلفية ببلاد المغرب كان بطلها الشيخ أبو الحسن الصغير وهو الفقيه علي بن عبد الحق الزرويلي الذي أشاد به وبتعاليمه تلميذه الإمام الحافظ محمد بن مرزوق الحفيد دفين تلسمان الذي قال في تأليفه المتعلق بهذه الحملة: «النصح الخالص في الرد على مدعي رتبة الكامل للناقص» الذي سبقت الإشارة إليه، كان في دائرة الخلافات بين كثير من علماء المذاهب إذ كان الاحترام المتبادل بين ابن مرزوق رئيس قسم السلفيين ومعاصره الإمام قاسم العقباني رئيس قسم المتصوفة لم يمنعهما من التعاون في ميادين التدريس وخدمة العلم. أقام رزوق مدة في بلاد الجزائر فأخذ عن كثير من علمائها من بينهم الشيخ عبد الرحمن الثعالبي دفين الجزائر ثم ختم به المطاف بنواحي بجاية وبالضبط في قرية تامقرا بمعهد الشيخ يحيى العبدلي الزواوي ـ ما زال هذا المعهد إلى يومنا هذا اشتهر بما اشتهرت به كثير من المعاهد العلمية بجبال زواوة ـ تصدى الشيخ زروق مدة اقامته بالتدريس فانهال عليه كثير من التلامذة، نقتصر على اثنين منهم هما الإمام محمد بن علي الخروبي الطرابلسي دفين الجزائر وأحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة وناشر الطريقة اليوسفية. فالخروبي كان من السلفية وترك تآليف كتب لها الخلود وأقره في منصبه إمام الجامع المالي بعاصمة الجزائر حسن بن خير الدين باشا الذي عينته الخلافة الإسلامية العثمانية رئيساً للمذهب المالكي رغم أن مذهب الخلافة كان المذهب الحنفي (وهنا نرى من حسنات الخلافة العثمانية أنها رغم أن شيوخ الإسلام الحنفي كانت مكانتهم تولي الرياسة الدينية ومنزلتهم في التشريفات تأتي بعد منزلة الباشا الحاكم بأمره وبقيت احباس المالكية مساجدها كعادتها قبل تولية الأتراك

بالجزائر ولم تبن المساجد الحنفية بالجزائر إلا في المدن التي سكنتها جاليات تركية. أقر الأتراك مدة حكمهم الجزائر الشيخ محمد بن علي الخروبي المالكي تلميذ زروق وكلفوه بالسفارة إلى المغرب لتسوية مشاكل الحدود فزار بلاد المغرب عدة مرات واجتمع بعلماء المغرب على سنن علماء ذلك العهد حيث كان السفير يسبق اداء واجبات التقاليد من زيارة المساجد والاجتماع بزملائه وتبادل الاجازات العلمية قبل أن يؤدي مهمته الدبلوماسية. وقد احتفظ لنا التاريخ بوثائق سجلت فيها مناظرات الخروبي مع علماء المغرب كان الخروبي سلفياً وترك تآليف قيمة مشهورة كما كان زميله في الدراسة طرقياً ـ على حد تعبير المعاصرين ـ أثارت تعاليمه ونشاطاته الفكرية عليه وابلاً من الانتقادات ونسبت إلى مريديه تصرفات منافية لتعاليم الإسلام وإن تبرأ منها وقال «من قال عنا ما لم نقله ابتلاه الله بالعلة والقلة والموت على غير ملة» إلا أن آثار تلك التصرفات فعلت مفعولها لا في الأوساط الإسلامية فحسب بل في الأوساط الأجنبية ومنذ سنوات قليلة عقد معهد «الكوليج دو فرنس» بباريس ملتقى موضوعه: «تاريخ العرب من خلال وثائقهم» حاول أحد كبار المستشرقين المشرفين على هذا الملتقى أن يثبت تهمة الزندقة التي تبرأ منها أحمد بن يوسف في حياته. وضربنا هذا المثل لنبين أن التعايش الودي والتعاون العلمي بين الأفراد المختلفة وجهات النظر في المذاهب العقائدية لا ينافي المصالح العامة. وهذا الجانب هو الذي قام به أحمد زروق ونجح فيه وادي واجبه وحاز رضا الفريقين المتخاصمين أي السلفية من جهة والمتصوفة من جهة أخرى. وفي معهد تامقرا ببجاية تفرغ زروق زيادة على دروسه العلمية ايدها بتآليفه القيمة العلمية، من بينها «قواعد التصوف» «وأصول الطريقة» و«نظم السلمى» وهذا الأخير شرحه تلميذه الخروبي. وهذه التآليف كلها درر، وقد انتصر لها وأشاد بها جل الدعاة، واتخذوها أمثلة عليا. فمن جهة نرى كثيراً من المتصوفين يفتخرون باتصال أسانيدهم في طرق التصوف بالشيخ زروق ومن بينهم التلاميذ المنتسبون إلى أحمد بن يوسف.



وكذلك دعاة السلفية المعتدلون النزهاء أمثال الشيخ عبد الرحمن الأخضري الذي ما زالت تآليفه في مختلف فروع المعرفة لها مكانة بالجامعات الإسلامية كالازهر والقرويين والزيتونة. وفي السنة الماضية أقام له المركز الوطني للبحوث التاريخية بالجزائر، تحت اشراف وزارة الثقافة، ملتقى بمناسبة الاحتفال بذكراه، شاركت فيه نخبة من الباحثين والعلماء والسلطات، إذ علاوة على اشتهار عبد الرحمن الأخضري بتآليفه العلمية التي كتب لها الخلود، اشتهر أيضاً بمنظومته التي سماها «القدسية» وهي تحتوي على سبع وخمسين وثلاث مائة بيت (357)، إلا أنها مع الأسف لم تعط لها أهمية حتى أنه وصلنا منها في المدة الأخيرة ـ اظن في رسائل ابي الصلاح ـ نص مشوه حتى في اسم المؤلف، فقد ذكروه: «عبد الرحمن المغربي» لا زائد ولا ناقص. وهذا مما يدل على عدم اعتناء قادة الفكر ببلادنا باعطاء الأهمية لهذا النوع من التآليف وتشجيع أفكارها لا مجاراة العوام واشباههم، وتملق نزواتهم واغلاطهم، وكل من حاول استغلال هذه الخلافات التي اجتاحت البلاد واستغلها المغرضون والمستعمرون. ولنرجع إلى الحديث عن عبد الرحمن الأخضري العالم المثالي النزيه فرغم أنه توفي ولم يجاوز عمره الثلاثين سنة فقد ترك لنا آثاراً علمية كتب لها الخلود ومن بينها تأييده لمذهب أحمد زروق شيخ والده محمد الصغير قال منوهاً بتعاليمه ما يلي في القدسية:

ومتى يرد معرفة بالبدع ... وما انبْنا عليه أصل المدعي
ففي كتاب شيخنا الزروق ... عجائب فائقة تروق

إلى أن قال في الموضوع:

والشرع ميزان الأمور كلها ... وشاهد لاصلها وفرعها

ثم قال:

وقال بعض السادة الصوفية ... مقالة جليلة صفية
إذا رأيت رجلاً يطير ... أو فوق ماء البحر قد يسير

فإنه مستدرج وبدهي ولم يقف عند حدود الشرع

ثم قال الأخضري:

وقال بعض أولياء الله السالكية لصراط الله
من ادعى مراتب الجمل ولم يقف بآداب الجلال
فارفضه إنما الفتى دجال ليس له التحقيق والكمال

الخ.

نكتفي بهذا القدر ولا يفوتنا أن نذكر أن منظومة«القدسية» هذه لم تحظ إلا بشروح قليلة من بين ما وصلنا منها واحتفظ لنا به التاريخ «شرح الشيخ الحسين الورتلاني» صاحب الرحلة المشهورة التي طبعت مرتين: الطبعة الأولى في تونس (طبعة حجرية) والطبعة الثانية في الجزائر. وقد شرح الورتلاني منظومة «القدسية» رغم أنه كان من غلاة المتصوفين، وذكر أنها كانت تقرأ في معاهد بلاد زواوة. ولنرجع إلى طريق نجاح أحمد زروق في مهمته أنه بتآليفه السابقة الذكر وخصوصاً منظومة «عيوب النفس للسلمي» التي حولها نظماً وشرحها تلميذه محمد بن علي الخروبي شرحاً ممتعاً مفيداً لا يتنافى في ميدان التربية والتوجيه مع أحدث آراء العلماء المعاصرين. فبهذه التآليف ضبط زروق تعاليم التصوف ونال رضا السلفيين والمتصوفة حيث خفف من أنصار الحزبين، وقد ساعده على فوزه في هذه الميادين العقائدية تضلُّعه في علوم الدين، واستقامته الشخصية واخلاصه، وإن كان كثير من المغرضين ارادوا الانتصار على ما في القدسية من انكار على متصوفي عهده حيث قال صاحبها في الانكار على طوائف منهم.

واتخذوا مشائخاً جهالاً لم يعرفوا الحرام والحلال

إلا أنه كان يعظم الصوفية الحقيقيين لا المحترفين. كما كان الأخضري ينكر على العلماء المحترفين وخصصهم بمنظومة تحتوي على (250) خمسين ومائتين بيت قال فيها:



واحذر علماء السوء فقد خصوا بالافك والخطل
حفظوا الأقوال ما علموا بالعلم فساد القوم قل
ما حرفتهم إلا لعب ولحوم الناس بلا قلل
ارباب قلوب قاسية للطاعة أصلاً لم تمل
لا نطق لذكر الله لهم إلا باللهو وبالهزل
لا يكسبون العلم سوى لرياء الناس وللجدل
طمس الأقوال تملقهم لولاة السوء ذوي الخلل

هذه لقطات تتعلق بآثار الخلافات الفكرية التي اجتاحت بلادنا في مراحل تاريخه، وتجددت وتقمصت ألبسة تختلف على حسب الزمان والمكان، ولا زالت متواصلة إلى عهدنا هذا. أما بالنسبة لعلوم اليونان أي المنطق والفلسفة فالجدل الذي احدثته الفلسفة وكان من ضحايا شظاياها النارية ابن خميس التلمساني الذي بقي مجهولاً عدة قرون ولم يكشف الغطاء عن حقيقته وترجمة حياته إلا منذ حوالى ربع قرن، واخترت تناول ترجمته في هذا الملتقي، وإن سجله اعضاء محكمة فقهاء فاس في قائمة الزنادقة والملحدين وكان ذلك الحكم القاسي هو سبب محنته في بلاده وخارجها. إلا أن التاريخ بعد اكتشاف آثاره السابقة الذكر وباعتراف عدوه اللدود ابن هدية القرشي التي تثبت أنه امتاز عن كثير من الذين ألصقت بهم التهم في الميادين الفكرية. امتاز ابن خميس بأنه لم يقتصر على الدفاع أو على الأقل محاولة التلطيف أو الالتماس للاعذار، بل فاجأهم باغتنام الفرصة التي اتيحت له واتخذ المجلس منبراً للدعوة إلى آرائه التي أشاد فيها بالفلسفة وائمتها فأفحم جميع معارضيه، ولم يبق معه في الجدل إلا رئيس المحكمة الشريف أبو البركات. وهذا باعتراف شارح[1] رسالته الذي كان يكفره ويكفر معه اعضاء الحزب المنتمي إليه. ورغم مغادرة ابن خميس إثر

(1) الشارح محمد بن منصور بن هدية القرشي صاحب «العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس».

صدور حكم الاعدام عليه إلى بلاده وخاطب المشرف على تعيين محكمة الفقهاء الاستثنائية، لم يمنعه ذلك من مكاتبة أبي الفضل ابن عتيق شاكياً ومحتجاً على محاكميه الذين سماهم «عصابة اساءت له». وختمها باثبات انطباعاته عن محاكميه، وفي طليعتهم مشرف مدينة فاس: أبو البركات محمد بن علي الحسني المعروف بالشواذكي الذي ترأس مجلس التحكيم. ورغم أن ابن خميس افحم اثناء محاكمته أعضاء المجلس، الواحد بعد الآخر، ولم يبق في الميدان إلا رئيس المجلس أبو البركات الذي جادل ونقل آراء ابن خميس إلى أن أسفرت المحكمة إصدار حكم تسجيل المتهم ابن خميس في دفتر الملحدين والزنادقة الذين لم يبق إلا تنفيذ حكم الإعدام عليهم (وهذا باعتراف ابن هدية في شرحه «العلق النفيس في شرح رسالة أبي خميس»).

ختم ابن خميس بانطباعاته هذه في رسالته الثانية، أي التي كتبها إلى قاضي فاس الشرعي أبي غالب المغيلي وكتب عليها ولده (أي ولد القاضي المغيلي) ما سبقت الإشارة إليه وهو «أن هذه الرسالة أرسلها ابن خميس بعد رجوعه إلى تلمسان لوالده القاضي أبي غالب المغيلي سنة 682» ختمها ابن خميس بما ختم به الرسالة الأولى التي أرسلها إلي أبي الفضل أبي عتيق المشرف على المحاكم الاستثنائية، وهو الذي عين أبا البركات رئيس المحكمة في فاس التي حاكمته ومثل أمامها ابن خميس. ورسالة ابن خميس إلى أبي الفضل المذكور حظيت بالنشر، ومن خلالها أطلع الرأي العام العالمي على مكانة ابن خميس الثقافية، وإن بقيت جوانب منها مجهولة إلى عصرنا الأخير فإنها كانت معروفة. ولعدم تعرض ناشريها أمثال لسان الدين لابن الخطيب الذي اقتصر على نشرها في «عائد الصلة» ونقلها الاستاذ عبد الوهاب المنصور مؤرخ الدولة المغربية في تأليفه القيم «المنتخب النفيس من شعر ابن خميس». واعوزته المصادر التي لا شك أنها كانت موجودة بدليل اكتشاف شرح أبي هدية القرشي الذي نوه به أبو الحسن النباهي



قاضي المرية في كتابه الذي جمع فيه «قضاة الأندلس» أو «المرتبة العليا فيما يخص من يستحق تولية القضاء والقتيل»[2] ونشره سنة 1948 المستشرق الفرنسي ليفي بروفنصال بمطبعة الكتاب المصرية.

وكان ضمن قضاة الأندلس المترجم لهم في التأليف محمد بن منصور ابن هدية القرشي صاحب شرح رسالة ابن خميس الذي سماه «العلق النفيس في شرح رسالة ابن خميس». وكان ابن هدية هذا من أعلام الأندلس، قرأ عليه لسان الدين ابن الخطيب ومحمد المقري الجد، ولم ندر ما السبب في وجود ذكره في قائمة قضاة الأندلس، وإنما تولى قضاء مدينة تلمسان ورياسة وزرائها، وكان هذا التأليف كما سبق لنا ذكره ـ استوعب فيه صاحبه ترجمة ابن خميس وآثاره باجمال وتفصيل خصوصاً المواضيع الشائكة من ترجمته، فيما يخص شأنه وآراءه الفلسفية التي جرت له المحن وظروف محاكمته. وقد اتيحت لابن هدية فرص لم تتح لغيره من بقية مترجميه إنطلاقاً من معاصريه وبالخصوص ظروف المحاكمة، إذ كما قال في «العلق النفيس» أنه اثناء محاكمة ابن خميس في فاس «كان هو بها صحبة والديه المرحومين». كما أن منصبه ومقامه في الأوساط العلمية، خصوصاً لسان الدين ابن الخطيب الذي كان في طليعة مترجمي ابن خميس، وهذه مجرد افتراضات، لم يكن يجهل ترجمة حياة ابن خميس ولا ما كتب عنه في عصره مثل ابن هدية، ولهذا لم نتيقن بأن المصادر التي اعوزت المعاصرين لم تكن مجهولة عند من سبقوه كلسان الدين ابن الخطيب والمقري والحضرمي الذي عاصره في المرية وجمع ديوان شعره، فلنقصر على ما ذكرناه وأملنا أن المتخصصين في هذا النوع من الدراسات يكتشفون سكوت مترجمي ابن خميس على عدم أية إشارة إلى تأليف ابن هدية القرشي الذي احتفظ لنا به التاريخ في إحدى الخزائن العلمية بواد بجاية وهو قديم من التراث الأندلسي.

(2) معذرة إن وقعت اغلاط بالنسبة لعنوان الكتاب.

أما الرسالة الثانية موضوع حديثنا التي وإن كتبها في وقت واحد مع رسالته المنتشرة التي شرحها ابن هدية وكتبها إلى صديقه قاضي فاس أبي غالب المغيلي، فلم يطلع عليها أي واحد من جملتهم ابن هدية الذي كان يظن أن الرسالة التي شرحها لم تصل إلى صاحبها بفاس، وإنما بقيت بتلسمان. ونفس حديثه عن تاريخ المحاكمة ذكره على سبيل التقريب إذ قال في الموضوع، وكانت هذه المحاكمة ما بين السبعين والثمانين (القرن السابع أو قبل ذلك بقليل) إذ الرسالة كما دل عليها تاريخ ولد القاضي المغيلي كان سنة 682 وضبطها الكاتب المذكور أنه أرسلها ابن خميس إلى والده بعد رجوعه من تلمسان أي بعد محاكمته.

بقي أمر آخر وهو أن الرسالة أي الثانية التي احتفظ لنا بها التاريخ بخط ابن خميس، وهي أصيلة وبقيت في طي الخفاء عند أسرة قاضي فاس المغيلي وتوارثها الخلف عن السلف، وهذا ما نأمل أن يكون موضوعاً يتولاه الاختصاصيون، لا في موضوع الرسالة بل حتى في تاريخ كتابتها، وهل هي بخطه وخط ولد القاضي المغيلي قاضي فاس. ولنرجع إلى تتمة دراستنا وهي التي ذكرنا أن ابن خميس ختمها بما ختم به رسالته الأولى التي وجهها في وقت واحد مع الثانية، وحظيت بالانتشار في المغرب والاندلس أي التي كتبها إلى أبي الفضل العبدري السابق الذكر محتجاً على ما قال ابن هدية وشاكياً من «عصابة» تولى أفرادها محاكمته بفاس ومعظم أفرادها من الفقهاء المالكيين الاشاهرة حسبما بين ذلك ابن هدية. قال ابن خميس في ختام رسالته لصديقه قاضي فاس ابن غالب المغيلي الذي تبين أنه كان على فكرته وما يلي:

رداً قسم أبو الفضل[3] بما له على أبي البركات[4] من الفضل ذلك

(3) أبو الفضل الذي كان يشرف على المحاكم الاستئنافية وهو الذي عين أعضاء محكمة فاس ورئيسها.

(4) أبو البركات هو مشرف مدينة فاس أبو البركات محمد بن علي الحسني المعروف بالشواذكي رئيس محكمة فاس.



العراقي لا هذا الفاسي الجرثومة. وإن يكن ذاك إسرائيلي الأصل وهذا اسماعيلي الجنس، أن موطىء قدم أبي غالبنا المذكور من فاسه الغراء، لارفع واسنى من مقعد رقم طبهم المشهور من غرناطة الحمراء، ومن متبوأ امينهم المرحوم من جنة جزيرة الخضراء فبما كتب أبا الفضل من هذه العجرفة والوك أرأيت في عمرك مثل هذا الصعلوك، لا والله ما على هذه الغبراء، من يتظاهر بمثل هذه المعرفة في بني غبراء، فأي شيء هذا المنزع ايش لا مال لنا معك ولا عيش، من يصحبك على هذا الطيش، ما هذا، الخبل، أخمار بك أم ثمل، ارجع إلى ما كنت بصدده وقيت الزلل، خذ في الجد فما يليق بك الهزل، رقق غزلك، فاحك لما منه أرق غزل، ماذا أقول؟ وأي عقل يطابقني على هذا المعقول، أفحمتني والله عن مكالمتكم هذه المحن، ومنعني عن طلب مساءلتكم، ما لكم علي في دنياكم هذه الأحن، إن تكلمت كلمت، وإن استعجمت عجمت. أمـا لهـذه العلة أس؟ أمـا لهذه الغيلة مؤاس؟ ما حيلتي في طبع بلدكم الجاس؟ أما يليق لضعفي قلب زمانكم القاسي (القاس)؟ ما لهذه الدمن يا بني خضراوات الدمن؟ اظهرتم المجن، فقلب لكم ظهر المجن، إن مر بكم الولي حمقتموه، فإن زجركم العالم فجرتم عليه ففسقتموه، وإذا نجم فيكم الحكيم غصصتم به فكفرتموه وزندقتموه[5] كونوا مغرضين فما لكم اليوم من سراة، واذهبوا من مراعيكم المستوبلة، حيث ما شئتم فقد اهملكم الرعاة، ضيعتم السنن والشرائع، واظهرتم في بدعكم العجائب والبدائع، نفقتم النفاق واقمتم سوق الفسوق على ساق استصغرتم الكبائر، وبَحْتُم الصغائر، اين فقيركم الشاكر، يتفقد فقيركم الصابر، اين عالمكم الماهر، يرشد متعلمكم الحائر، مات العلم بموت العلماء، وحكم الجهل بقطع دابر الحمقاء، جدد لنا شريعتكم يا أفضل الشارعين، قم فينا بموعظتك، يا أفصح التابعين، إلا والله ما يوقظكم من هذا الوسن، وعظ الحسن، ولا ينقذكم من فتى هذا الزمن إلا سيف

(5) اظن أنه يشير إلى محاكمته حيث حكموا عليه بالكفر والزندقة.

صاحب ابن الحسن والسلام».

ولختم هذه الدراسة برواية رواها الشيخ عبد الكريم ابن الفتون القسنطيني في تأليفه القيم «منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية» ترجم فيه لأحمد زروق، وذكر من جملة مآثره رأيه الخاص في متصوفة زمانه، وذكر أنه (أي أحمد زروق) كان يرافق قوافل التجار إلى تونس. في أواخر أيام اقامته بالجزائر، وكان المكلف بالمكس في قسطنطينة والد الشيخ عم الوزان العالم الشهير دفين قسنطينة، فذهب إليه فوجده مشتغلاً بزيارة ولده وطلب منه الوالد أن يدعو له فاستجاب الله دعاءه. وهذا الدليل سقته لاظهار شهرة زروق التي لازمته حتى لما احترف التجارة ويصحب القوافل التجارية في غدوها ورواحها، من تامقرا إلى تونس. وفي ترجمته لابن الفكون هذا ذكر دراسة مفيدة جداً في ميدان الصلاح والتصوف والسلفية. هذه نبذ من تاريخ مرحلة من مراحل الخلافات الفكرية التي اجتاحت بلاد المغرب العربي، ظهر فيها عالم مثالي كان داعية للخير وناصراً للحق، فحصل رضا الفريقين المتحاربين وجمع جمع النقيضين أحمد بن يوسف صاحب الطرقة الصوفية ومحمد بن علي الخزرجي السلفي، وأحمد زروق يتخذ قدوة حسنة في هذا الميدان.



# عن ابن طفيل

محمد عزيز الحبابي

أبو بكر القيسي، قبل كل شيء، أديب وفلكي وطبيب. وإن ممارساته للطب دفعته إلى التأمل في حقيقة هذا الإنسان الذي يعاني الأمراض ويقاومها طبياً، كما دفعته ممارساته للفلك إلى التأمل فيما وراء النجوم والأفلاك، فيما وراء الطبيعة.

الفلسفة عند ابن طفيل وسيلة لتجاوز المحسوسات إلى حقائقها بالتأمل. فكما يجب على الطبيب والفلكي ألا يقفا عند حدود التطبيقات المباشرة مهنياً، كلما أراد الوصول إلى رتبة التنظير، كذلك على رجال السلطة أن يتعمقوا في أسرار ممارسة الحكم وسياسة المجتمع، فمصاحبة ابن طفيل لعبد المؤمن ثم لأبي يعقوب يوسف كانت ذات تأثير على سلوكهما وعلى تعاملهما مع السلطة، ألم يكن أبو يعقوب يوسف متفلسفاً وعاطفاً على الفلسفة؟.

* * *

لم يترك ابن طفيل إلا رسالة حي بن يقظان. أما كتاب أسرار الحكمة المشرقية، فيظهر أنه مجرد جزء من الرسالة.

قلنا أن الفلسفة لدى ابن طفيل لا تمثل الهم الأول، لأنه يريدها أن